بريد الجمعة

أثر المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجُمعَة ٢١ سبتمبر ٢٠٠١

يكتبه: عبدالوهاب مطاوع

صوت الطاحونة

أنا سيدة شابة تزوجت منذ أربع سنوات.. وحين كنت في طفولتي رحلت جدتي عن الحياة فجذبتني إحدى سيدات الأسرة من يدي لأقبل وجه جدتي الراحلة، فكرهت منذ هذه اللحظة المؤلمة الموت كراهة شديدة... وأصبحت لا أطيق التفكير فيه، وظلت طوال طفولتي وصباي إذا رأيت سرادق عزاء في شارع لا أعبره لكيلا أمر بجانب السرادق، ثم مضت الأيام وشققت طريقي في الحياة وتزوجت وسعدت بحياتي إلا من فترات عابرة يلاحقني خلالها شبح الموت في أفكاري، وجعلت في ظل أحبيته من كل قلبي وهو مازال جنينا في بطني.. وقضيت أوقات حملي أداعبه وأتحدث إليه وهو في أحشائي وأشتري له كل ما هو جديد وأترقب في لهفة موعد مجيئه إلى الحياة.. وعندما جاء، ورأيته متعلقي شيء غامض من الفرحة الطاغية به فلقد كان يعاني من بعض الزرقة في جسمه، وطلبت الأطباء لفحصه ففسروا لي زرقة جسمه بأنها من أثر ولادتي المتعسرة وسرعان ما سوف تزول. وغادرت المستشفى حاملة طفلي وبدأت أرافبه فوجدته يأتي بحركات لا تتناسب مع عمره الذي لا يزيد على بضعة أيام، وحمدت الله على قوته ورحت أتلو آيات القرآن الكريم في كل حين، داعية الله أن يحفظه من كل سوء.

وحين بلغ اليوم الخامس والعشرين من عمره حملته إلى طبيب كبير لمجرد المتابعة والاطمئنان، حيث لم يكن يشكو من أي شيء، فما أن رآه الطبيب حتى سألني عن سبب زرقة جسمه، وطلب إجراء عدة فحوص على قلبه، وجاءت الفحوص بمفاجأة مخيفة، وهي أن طفلي الحبيب مولود بعيب خلقي في القلب ولا يمكن علاجه في مصر، وإنما يحتاج إلى السفر للخارج لإجراء جراحة له على يد خبير. وقضيت أياماً في ذهول حزين وأعدت إجراء الفحوص ثلاث مرات على أمل أن تكون خاطئة، وكان لدي من الأسباب ما يدفعني للتعلق بهذا الأمل، فصحة طفلي جيدة ورضاعته منتظمة وليس فيه شيء غير طبيعي سوى هذه الزرقة اللعينة، بل إن الأطباء كانوا يتسمعون دقات قلبه بالسماعة الطبية، فلا يجدون فيها ما يؤيد نتائج الأشعة. وانتهى الأمر بإجراء جراحة له على يد إحدى الخبيرات كمرحلة أولى على أن أسافر به بعدها لإجراء جراحة أخرى في المرحلة الثانية، ودخلت المستشفى مع طفلي... ولن أروي لك عن نظرات طفلي في تلك الأيام التي سبقت إجراء الجراحة، فهؤلاء الملائكة بالفعل يا سيدي يارعون في التعبير بالنظرات والإحساس بما سوف يحدث كما قالت لك الأم الشابة التي فقدت طفلها وروت لك قصتها بعنوان «الأيام القليلة» وطلبت منك ألا تنصحها بالصبر، لأنها قد سئمت هذه النصيحة، وبالرغم من ذلك فلقد تفاءلت وتمسكت بالأمل بإصرار. ودخل ولدي غرفة الجراحة وعمره ٥١ يوما فقط وسعد كل من حولي بذلك وتفاءلوا خيرا، أما أنا فإن صدر طفلي، الذي كان ينتفض بقوة أعجز كيف يتحملها جسمه الصغير، كان يثير المخاوف لدى ورحت أتأمله وأتساءل: كيف يارب يتحمل جسده الصغير كل هذه الأجهزة والخراطيم التي تكيله من كل ناحية، ورأيت طفلي ينظر إلي بعين زائغة فسألته: هل تعرفني.. هل ستزحل عني دون حتى أن تعرف ماما التي حلمت بك وأحببتك قبل أن تراك؟

وشعرت للمرة الأولى بأن رائحة الموت تقترب مني، فقد فشلت الجراحة بالفعل، وتمت إعادته في اليوم التالي... ورحت أصلي لربي وأدعو لطفلي بالشفاء أو الراحة، وعجبت لنفسي حين دعوت له بهذا الدعاء.. فهذا الطفل الذي ابتهلت إلى الله طويلا أن يهبه لي هو نفسه الطفل الذي أرجو الآن من الله أن يشفيه أو يسترده إليه رفقا به.

ولم يغمض لي جفن في تلك الليلة وأديت صلاة الفجر وشعرت وأنا أصلي بشيء كالشرارة قد هبط على كتفي الأيسر، ثم سرى في جسدي واستقر في صدري، وقمت من صلاتي لأكتشف أن اللبن قد جف من صدري تماما ولم يعد له وجود.. فرحت أجمع أشيائي وأنا أتلو سورة الواقعة إلى أن بلغت الآية الكريمة التي تقول: «يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين». فما أن تلوتها حتى انفجرت في البكاء، وأدركت لماذا خطرت هذه السورة بالذات على ذهني.

وفي الصباح قابلت الأطباء، وعرفت منهم أن هناك تطوراً خطيراً في حالة ابني ورأيتهم يتبادلون النظر في حذر، فأخبرتهم أنني مؤمنة بقضاء الله وقدره وأنه من الأفضل لي أن يسلموني طفلي الحبيب لأترحم عليه، فطلبوا مني التريث بعض الوقت، ولم تمض دقائق أخرى حتى استدعوني وأبلغوني أن سهم القضاء قد نفذ فيه. وطلبت بإصرار أن أراه ودخلت لأراه وقد فارق الحياة التي لم يطل بها مقامه ورفعته ووضعت رأسه بين عنقي وكتفي وضممته إلى بقوة كأني أريد أن أعيد إدخاله إلى جسمي مرة أخرى، وهبطت على سكينة من السماء، وتحجرت دموعي ولم أقل سوى: الحمد لله.

ويجتنني أنا التي كنت أفرّ من الموت أحمله بين يدي، ومهما قلت فلن أعبر لك عما حدث لي بعد ذلك، فكلمات الدنيا كلها عن الصبر والإيمان لم تكن تكفي، لكني استجبت في النهاية لمن حولي وكتمت حزني وعدت إلى عملي وفوجئت بأن الحزن الكامن في الأعماق قد تحول إلى وحش يلتهم كل شيء، حتى الطعام، فلقد كنت آكل بكلتا يدي فلا يستقر بعدها شيء في جوفي.. كما كنت أسمع دائما صوتا كصوت الطاحونة يهدر في صدري، وتمنيت لو تركني من هم حولي لكي أصرخ.. وأصرخ وأصرخ ليخرج الحزن من صدري.

لكني تماسكت وتعمدت أن أنكر ولدي في كل لحظة.. ووضعت صوره في كل مكان بالبيت، على الرغم من اعتراض الجميع، وعاهدت نفسي على أن أصلي ركعتين مع كل فرض باسم ولدي لكي أتذكره بقية عمري برغم علمي أن هذا الملاك الطاهر لا يحتاج إلى صلاتي من أجله.

ولقد ترفق بي ربي برحمته الواسعة، فحملت مرة أخرى وبذل الأطباء كل ما في وسعهم للتأكد من عدم وجود عيوب خلقية في الجنين، وأبلغوني بذلك لكني كنت شديدة الحذر من السعادة، وفي كل مرة يجري فيها الطبيب فحوصه ويؤكد لي أن الجنين بخير أتذكر قول الله سبحانه وتعالى: «فأخشيناهم فهم لا يبصرون» وأسأل نفسي: وماذا لو أراد الله لي شيئاً آخر.. وماذا سأفعل حينذاك سوى أن أصبر وأحمد الله في كل الأحوال، لكن فضل الله أكبر، فلقد أنجبت طفلة جميلة وجاءت صحتها جيدة والحمد لله وإني لانتظر إليها الآن وهي تنمو في سلام فأذكر نفسي بأنها ليست ملكا لي، وإنما هي وديعة من عند الله لدي، وأنه سبحانه وتعالى قدير على كل شيء، وأن الجاهل منا هو فقط من يأمن مكر الله.

كما مازلت أصلي ركعتين مع كل فرض وأهبهما لطفلي الراحل.. ولقد كتبت هذه الرسالة لكي أطلعك على تجربتي وأخفف بها عن الأم الشابة كآبة رسالة «الأيام القليلة» وأقول لها: صلي يا سيدتي لطفلك الراحل كثيراً وتعمدي أن «تتذكري» ابنتك لأنه خلال إصرارك على التذكر سوف يمن الله عليك بنعمة النسيان إن شاء الله.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

تذكرت وأنا أقرأ رسالتك المعبرة هذه كلمة صادقة للأديب البرازيلي باولو كويلو يقول فيها: «حين يجب عليك أن تبكي فابك كطفل فأنت إنسان حر، وليس من العار أن تظهر عواطفك، وليكن أنينك عاليا حين تشعر بالحاجة إلى ذلك، لأن الأطفال يبكون هكذا.. ولأنهم يتوقفون عن البكاء حين يفكرون في شيء آخر. وكذلك سوف تفعل أنت في الوقت المناسب»

ولا عجب في ذلك يا سيدتي فكلنا ضعفاء أمام الألم الإنساني، وليس مما يعيب أحدا أن يكون رقيق العواطف.. صادق الأحزان.. بشرط ألا يتعارض ذلك مع تسليمه بقضاء الله وقدره، ولقد بكى الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ولده إبراهيم، ولم يقل ما يغضب ربه، وبكى عمه حمزة بن عبد المطلب وصحابته الأكرمين الذين استشهدوا في المغازي.. وقال لمن اتهمهم بكاؤه على أحدهم: إنما هي عبرة الصديق على الصديق، وكان، كما روى عنه كتاب السيرة، دائم الفكر متواصل الأحزان.

فليس ذرف الدموع إذن مما يتناقض مع الإيمان والرضا بقضاء الله وقدره.. وساعة الفراق تبكي دائماً مهما يكن التجلد وعمق الإيمان وليس من صالح أحد أن يخالف طبيعته البشرية لأن إطلاق الحزن المكتوم يخفف عن النفس بعض الامها.. ويهيىء الإنسان لاستعادة توازنه النفسي بعد فترة معقولة من مكابدة الأحزان.

ولقد قرأت في بعض كتب الصوفية قصة عجيبة عن الزاهد المتصوف سمنون المحب الذي تجرد للعبادة وتعليم تلاميذه، حتى خيل إليه أنه قد بلغ من الشفافية درجة تجعله قادراً على تحمل أي اختبار من الله سبحانه وتعالى دون أن يتشكى منه أو يدعو ربه لكي يصرفه عنه، وكان يردد مخاطبا ربه:

وليس لي في سواك حظ
فكيفما شئت فاختبرني

مؤكدا لنفسه أنه سيكون عند أي اختبار من الصابرين فابتلى بمرض احتباس البول وصبر عليه وتجلد ولم يدع ربه بالشفاء منه، إلى أن جاءه تلاميذه يقولون له إنهم قد سمعوه في الليل يدعو لنفسه بالشفاء من المرض، ولم يكن قد فعل، فعلم أن مراد ربه هو أن يظهر الحاجة إليه وليس أن يترفع عنها معتزا بصبره وتجلده فطاف على صبيان المكاتب الذين يتقنون العلم ويحفظون القرآن يقول لهم: ادعو لعمكم الكذاب!

أي لعمكم الذي كذب على نفسه وزعم أنه قادر على تحمل أي اختبار من الله سبحانه وتعالى، ولهذا السبب لا يزعم الصالحون قدرتهم على الصمود أمام كل اختبار، وإنما يدعون ربهم «.. ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» لأن هذا هو الأقرب إلى طبيعتهم البشرية.

وأحسب أنني لم أستوعب كل معاني الحديث الشريف الذي يقول: «من لم يسأل الله يغضب عليه» إلا بعد أن قرأت قصة سمنون المحب هذه، كما أحسب أيضا أنني، وعلى كثرة ما قرأت عن فن نسيان الشقاء الذي تؤلف فيه الكتب العديدة في الغرب، أنني قد قرأت من قبل هذه النصيحة التي تتوجهين بها للام كاتبة رسالة «الأيام القليلة» بأن «تتذكر» لكي «تنسى»!

فلقد توقفت أمامها وتفكرت فيها طويلا، إذ درج علماء النفس المحدثون على أن يؤكدوا لنا أن الطريقة الوحيدة للتخلص من الأحزان هي نسيان التجارب المؤلمة والمشاركة في النشاطات الاجتماعية والانشغال بالعمل، ومن قبل ذلك كله الإيمان بالله والتسليم بإرادته.. فإذا بك تضيفين إلى هذه الوصفة نصيحة جديدة مستخلصة من معاناتك الشخصية مع فقد وليدك الصغير، وهي أن ينكر المرء من فقدهم لكي ينسى أحزانه عليهم! فلعلك تقصدين بذلك أن يواجه الإنسان واقعه المؤلم ويعترف به ويسلم بعجزه عن تغييره، ويلتمس لنفسه بعض السلوى والعزاء عنه في استرجاع ذكرى الأحباء الراحلين وإحياء ذكراهم في قلبه واسترواح نسائم الراحة في تخيلهم ومعايشتهم في وجدانه من حين لآخر تأكيداً للمعنى الذي يقول إن من يرحلون عنا لايموتون حقا حين نفقدهم، وإنما حين ننساهم.

وذلك بديلا عن الهروب من الواقع أو إنكاره أو السخط عليه دون أية قدرة على تغييره مما يطيل من الأحزان ويكرس النقمة ويؤخر لنفسه التخلص من الأحزان.. ويؤثر بالسلب على قدرة الإنسان على التواصل مع الحياة، فإذا كان ما فهمته من نصيحتك هذه صحيحا فلعلها إذن تكون نصيحة مفيدة ومكتسبة من واقع خبرة الألم الشخصية.. ولا ينبئك مثل خبير.

فأما النقطة الأخرى التي استوقفتني في رسالتك وأثارت «تأملاتي» فهي خوفك القديم من الموت ونفورك منه وفرارك من كل ما يذكرك به فرار السليم من الأجرب.. فإذا بك وكما تقولين في رسالتك تحملينه بين يديك وتسلمين بأنه لا مهرب منه ولا فرار مهما حدثنا الخطى بعيداً عنه!

ناهيك عن جفاف اللبن من صدرك قبيل ساعات من رحيل الوليد الذي كان يتغذى عليه ودون سبب عضوي واضح.. فكأنه إشارة من السماء إلى قرب الرحيل، أو كأنه استشراف قدري لما سوف تمضي إليه الأمور.

فالحمد لله الذي أخرجك من أحزانك وعوضك عمن فقدت، وأوقف صوت الطاحونة التي كانت تهدر في صدرك بالحزن والألم وأسعة الفراق بعد حلول القضاء، وإني لأرجو لك الله - سبحانه وتعالى - أن يحفظ عليك ابنتك ويطمئن قلبك الواجف على مستقبلها الآمن والسعيد بإذن الله.. وشكرا لك على رسالتك التي تضمنت الكثير مما يثير التأمل ويحرك الشجون، وعلى رغبتك الإنسانية في التخفيف عن كاتبة الرسالة الأولى وطرحك لتجربتك الشخصية عليها وعلى الآخرين.